حكومة دبي
GOVERNMENT OF DUBAI

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري
Islamic Affairs & Charitable Activities Department

التربية القرآنية

وأثرها في تنشئة الأجيال

بقلم
د. عبد الحكيم الأنيس

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

ISBN 978 - 9948 - 499 - 81 - 7

حقوق الطبع محفوظة

لدائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١+ فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١+
الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي
mail@iacad.gov.ae www.iacad.gov.ae

الحمد لله، وصلى الله وسلَّم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه. وبعد:

فمن الغني عن البيان اهتمام القرآن بصنع الإنسان، الإنسان الذي تتحقق فيه معاني الاستخلاف في الأرض، فيعمرها ويقيم الدين ويعمل للآخرة، الإنسان الذي تتوازن عنده الأقطاب الثلاثة: الدين والدنيا والآخرة، فيعطي كلاً منها حقه.

وإذا كانت مرحلة الطفولة، هي المرحلة التي ينبني عليها ما بعدها، فإننا سنتوقع الكثير من عناية القرآن بها وبما قبلها، ولنأخذ شيئاً من الشواهد على ذلك:

❁ ❁ ❁

عاطفة إيمانية

أولاً: عناية الله بالطفل وهو جنين، يقول تعالى:

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٨]. هذه الآية واضحة لا تحتاج إلى تفسير، والعناية بالجنين والحفاظ على نسبه، ثم بأن يُولد في أسرة مستقرة متلاحمة، واضحةٌ تمامَ الوضوح أيضاً. وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾، فيه من استثارة العاطفة الإيمانية ما فيه، كما قد يُستشف منه نوع من التهديد والتعريض بعدم الإيمان أو عدم قبوله بالنسبة للمرأة التي تكتم حملها.

❁ ❁ ❁

تعليمات

ثانياً: وإذا جاء هذا الجنين إلى الدنيا، وتفرق الوالدان، فإنَّ لذلك تعليمات لا بُدّ من اتباعها، والآية الثالثة والثلاثون بعد المئتين من سورة البقرة تناولت هذا الموضوع بالتفصيل: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ

ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، ولنلاحظ هنا:

- حق الأولاد في الرضاعة الطبيعية الكاملة.

- حق الأم المرضعة بالرزق والكسوة؛ لأن صحتها الجسدية والنفسية تنعكس على رضيعها.

- عدم جواز الإضرار بالوالدة، لتبقى علاقتها بطفلها سليمة، (هناك أمٌّ قطعت عضو طفلها انتقاماً من أبيه!).

- عدم جواز الإضرار بالوالد، ليبقى مستمراً في تقديم النفقة والكسوة من غير مشكلات، إذ كل ذلك - أي: الإضرار بالوالدة والوالد - يعود بالضرر - إنْ حصل - على الطفل.

- إن لم يوجد الأب، فالوارث يقوم مقامه.

- إنهاء الرضاعة لا بُدَّ أن يكون عن تراضٍ وتشاور، ولنا أن نتخيل أي أهمية لهذا الطفل الرضيع الغافل، بحيث يتناول الحقُّ سبحانه أَمْرَ رضاعته وفطامه بهذا التحديد والاهتمام، فلا بد من التراضي والتشاور في هذا.

- ختام الآية بالأمر بالتقوى، ثم بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾، فيه من العناية ما يجل عن الوصف، والباري يُذكِّر أصحاب الشأن بأنه بصيرٌ مطلعٌ على ما يعملون، إذا ما حدَّثوا أنفسهم بأي تقصيرٍ أو تنصُّلٍ من المسؤولية.

- وفي الآية السادسة من سورة الطلاق، مزيد بيان لعناية الله تعالى بالطفل.

❁ ❁ ❁

بلوغ فتكليف

ثالثاً: وإذا أردنا أن ندخل دخولاً مباشراً في موضوع التربية القرآنية وأثرها في تنشئة الأجيال، فحسبنا أن نتوقف عند الفلسفة القرآنية وعمقها وأبعادها التربوية الخاصة بها. إنَّ التربية القرآنية متفردة في أمرٍ لا نجده في غير القرآن، ذلك هو ربط القرآن التكاليف الشرعية بالبلوغ، والبلوغ بالاحتلام أو بالإنبات والسن، والسن عند الكثيرين هي خمس عشرة سنة، يقول القرطبي: « قال أصبغ بن الفرج: والذي نقول به: إنَّ حد البلوغ

الذي تلزم به الفرائضُ والحدود خمس عشرة سنة، وذلك أحب ما فيه إليَّ وأحسنه عندي، لأنه الحد الذي يسهم فيه في الجهاد ولمن حضر القتال. واحتج بحديث ابن عمر، إذ عرض يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجيز، ولم يجز يوم أحد، لأنه كان ابن أربع عشرة سنة. أخرجه مسلم ». [تفسير القرطبي ٥ / ٣٥].

أقول: فإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا يُلزِم أن يعدَّ الطفل لمرحلة البلوغ، وأن يُعَلَّم كل ما يلزمه وكل ما يحتاج إليه وهو مكلف، وهذا يشير إشارة دالة إلى أن التربية القرآنية تقتضي الاهتمام البالغ بهذا الطفل قبل سن البلوغ، حتى إذا وصل إليها كان مؤهلاً تأهيلاً كاملاً، عالماً بما هو مطلوب منه، مستوعباً ما سيُكلَّف به في مجالات الإيمان والإسلام، عقيدةً وأركاناً وأخلاقاً.

ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا

فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦]. (واقرأ: الإعداد لسن التكليف للأستاذ سلمان الحسيني).

❁ ❁ ❁

عناية شاملة

وهنا لا بد من التذكير بأن الله تعالى إذا كان يعتني بمال اليتيم هذا الاعتناء، فما القول بعنايته ـ سبحانه ـ بعقله ودينه وعلمه وتأهيله؟

ومن البدهي – كذلك – العناية بجسده، وقد قال القرطبي في تفسيره (٥ / ٤٥): « كما على الوصي أو الكفيل حفظ مال يتيمه والتثمير له، كذلك عليه حفظ الصبي في بدنه، فالمال يحفظه بضبطه، والبدن يحفظه بأدبه، ورُوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن في حجري يتيماً أآكل من ماله؟، قال: نعم، غير متأثل مالاً ولا واقٍ مالك بماله، قال: يا رسول الله، أفأضربه؟، قال: ما كنت ضارباً ولدك. قال ابن العربي: وإن لم يثبت مسنداً، فليس يجد أحد عنه ملتحداً ».

والخلاصة أن اعتبار التربية القرآنية سنَّ التكليف بالبلوغ، يرتبُ على الأمة مهام كبرى في إعداد الطفل للمرحلة القادمة من عمره، إعداداً كاملاً شاملاً واعياً بصيراً.

ولنا أن نتصور جيلاً متسلحاً بالعلم والمعرفة بدينه وهو على أبواب البلوغ، إن هذا الجيل هو الذي تمكن تسميته - بحق - «الجيل القرآني»، الجيل الذي يستعد لخوض غمار الحياة منذ نعومة أظفاره، وهو عالم بما تتطلبه الحياة من أحكام وشروط وآداب وأخلاق.

❁ ❁ ❁

وصايا لقمانية

رابعاً: ومن المفيد الإشارة إلى عناية التربية القرآنية بتنشئة الأجيال من خلال سورة لقمان، التي قصَّ الله تعالى فيها وصايا لقمان لابنه، واشتملت على ثلاثة محاور كبرى، لا بدّ لنا من الاهتمام بها والتركيز عليها وإيلائها ما تستحقه من عناية ونحن نربي أولادنا، وهي ما يأتي:

المحور الأول: تصحيح علاقة الجيل بربه، من خلال:

- التوحيد، وهو حجر الزاوية في تكريم العقل ورفعه إلى مستواه، كما في قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان: ١٣].

- الإيمان باليوم الآخر الذي يحجز الإنسان عن كثير من الشر، كما في قوله: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان: ١٦].

- الصلاة، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [لقمان: ١٧].

المحور الثاني: تصحيح علاقة الجيل بالوالدين، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ

أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤ - ١٥].

وإذا صححت هذه العلاقة قضي على كثير من المشكلات، بل خفّ العبء حتى عن الدولة، فبدلاً من أن تقيم دار العجزة والمسنين - مثلاً -، فإن الأبناء يتكفلون بذلك، وقال القرطبي: « الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال إن كانا فقيرين وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق »، فالجيل المسلم لا يعرف القطيعة والقسوة أمام المواقف الإنسانية، وذلك من فضل التربية القرآنية.

المحور الثالث: تصحيح علاقة الجيل بالمجتمع، من خلال:

- **الاهتمام بالمجتمع ونظافته:** ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [لقمان: ١٧].
- **التجمل في الحياة:** ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧].
- **التخلق بالأخلاق العالية الرفيعة:** ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ

فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩].

وقوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، أي: لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً واحتقاراً لهم، وقال بعض العلماء: « ولا تصاعر خدك، كأنه نهى عن أن يذل الإنسان نفسه من غير حاجة »، ونحو ذلك روي عن النبي ﷺ أنه قال: « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ».

ومما يتعلق بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾، ما رواه ابن عائذ الأزدي، عن غضيف بن الحارث أنه قال: أتيت بيت المقدس أنا وعبدالله بن عبيد بن عمير، فجلسنا إلى عبدالله بن عمرو بن العاص، فسمعته يقول: إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه فيقول: يا ابن آدم، ما غرّك بي؟ ألم تعلم أني بيت الوحدة؟ ألم تعلم أني بيت الظلمة؟ ألم تعلم أني بيت الحق؟ يا ابن آدم، ما غرّك بي؟ لقد كنت تمشي حولي فداداً، قال ابن عائذ: قلت لغضيف: ما الفداد يا أبا أسماء؟ قال: كبعض مشيتك يا ابن أخي أحياناً.

ونستفيد من هذه القصة، حرص الصحابة والتابعين على تعميق التربية القرآنية في نفوس الناس متى ما أمكنت الفرصة، فهذا عبدالله بن عمرو يربط بين تكليمِ القبرِ العبدَ وسلوكهِ في هذه الدنيا – وهو كلامٌ حقيقيٌ أو على لسان الحال –، وغضيف يهتبل المناسبة لينبه ابن عائذ إلى مشيته المرحة أحياناً، مما يدلنا على ضرورة تدخل الدعاة والناصحين بالشكل والوقت المناسبين.

❁ ❁ ❁

درس تربوي

ولا بد من القول: إن في وصايا لقمان لابنه درساً تربوياً آخر، وهو ضرورة قيام علاقة وثقى بين الوالدين وأولادهما ومتابعتهم، ودوام المناصحة والمصارحة، وقد ذكر القشيري أن ابن لقمان وامرأته كانا كافرين، فما زال يعظهما حتى أسلما.

إذن، فالموعظة والنصيحة والتعليم، كل ذلك كان شأناً دائماً مستمراً.

واليوم، تشكو العلاقات الأسرية تدابراً عنيداً وتقاطعاً شديداً وجفوة وجفاء بين الوالدين والأولاد، وإذا اتسع هذا واستمر، كان نذير خطر على الرابطة الأسرية التي هي من آخر ما بقي لنا في مجتمع العولمة.

وبعد، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، قال قتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم، وقوا أهليكم بوصيتكم، وقال ابن جرير: فعلينا أن نعلم أولادنا الدين والخير وما لا يُستغنى عنه من الأدب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

❁ ❁ ❁

فائدة:

أسرة قرآنية

من الأُسر العلمية العريقة المعروفة في تاريخنا العلمي: أسرة ابن أبي جرادة العقيلي، والتي عُرِفَ متأخروها ببني العديم.

قال أحدُ أفرادها وهو العالمُ الصالحُ العابدُ خطيبُ الجامع الكبير في حلب جمال الدين أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة الحلبي (ولد سنة ٥٤٠، وتوفي سنة ٦٢٨هـ): لما ختمتُ القرآنَ قبَّلَ والدي - رحمه الله - بين عينيَّ وبكى، وقال: الحمدُ لله يا ولدي، هذا الذي كنتُ أرجوهُ فيكَ[1]، حدَّثني جدُّك عن أبيهِ عن سلفهِ أنّه ما منّا أحدٌ إلى زمنِ النبي ﷺ إلا مَنْ خَتَمَ القرآنَ.

وقد روى هذا عنه ابنُ أخيه الإمامُ الكبيرُ المؤرِّخُ كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد صاحب «بغية الطلب في تاريخ حلب».

---

(١) لم يقل: أرجوه منك، لأنه يرجوه من الله فيه. وهذا تعبير دقيق، ومقصد عميق.

قال الأديبُ المؤرِّخُ ياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ): « وهذا منقبةٌ جليلةٌ لا أعرفُ لأحدٍ من خلقِ اللّه شرواها، وسألتُ عنها قوماً مِنْ أهل حلب فصدَّقوها، وقال لي زينُ الدين محمد بن عبد القاهر بن النصيبي: دع الماضي واستدل بالحاضر، فإنني أعدُّ لكَ كلَّ مَنْ هو موجودٌ في وقتنا هذا - وهم خلقٌ - ليس فيهم أحدٌ إلا وقد خَتَمَ القرآن. وجعَلَ يتذكرُهم واحداً واحداً، فلم يخرم بواحد »[1].

وقد عادت بركة القرآن على أبي غانم، وقال تلميذه ابن الأثير في وصفه: لو قال قائل: إنه لم يكن في زمانه أعبد منه لكان صادقاً. واقرأ ترجمته إن شئت[2].

❁ ❁ ❁

(١) معجم الأدباء (٥/ ٢٠٦٩).

(٢) في معجم الأدباء(٥/ ٢٠٨١)، والأعلام للزركلي (٧/ ١٣٠).